الجمهورية والمركب ...

قصة بقلم ضياء الشرقاوي

عشت حياة طويلة لا افكر في ان الحق الاذى بأي مخلوق .. ولكن الان .. الان .. لا بد ان اقتل نفس الجنود الثلاثة الذين قتلوا اصغر ولدي واحبه الى نفسي .. محمود .. وقلبي قد استحال الى جذوة من النار .. والاسى يبلل عيني .

اقتحموا الكوخ .. وداروا دورتين يحطمون ما يقابلون .. وولدي محمود ساخط .. يرتجف من الغضب .. ولكني امنعه واحول بينه وبينهم .. وهمست له : « كل هذا لا اهمية له ما دام المركب سليما لم يلحقه ادنى خدش ... »

وزعق : الكلاب

فاطلق عليه اقصر الثلاثة رصاص مدفعه .. وفي عينيه القذرتين الكراهية ... لقد احسست ان هذا القصير كان يحتك بابني خلال الدورتين ... ويحاول ان يهينه ... وما كاد ولدي يلفظ كلمة واحدة حتى قتله القصير .. اني اعرفه .. ولن انساه .. وسابحث عنه بين كل جنود الاعداء واقتله .. والاخرين ايضا ... وكرهت كل شيء ... حتى الحياة .

وعندما غربت الشمس حملت جسد ولدي ومضيت الى المقابر التي لا تبعد كثيرا عن كوخي .... « كنت آمل ان يصير اليك المركب فأخوك لا يحبه كما تحبه انت ... ولا يعشق البحر كما عشقته انه ... وانا ان فكرت في شيء خلال حياتي فلم افكر لحظة واحدة في ان نفقد المركب او يصير الى اخرين .. وبور سعيد كلها كانت عندي عبارة عن المركب والبحر وانت .. انت يا ولدي ... » وقدماي تثقلان .. وقلبي يثقل .. وما زال الهواء معبقا برائحة البيوت المحترقة والدماء المسفوكة .. والليل صار رحبة مخيفة تجوس خلالها الاشباح ويتنفس فيها الموت .

ـ « هاي ايها الرجل ... الى اين انت ذاهب ؟ »

وتلفت نحوه ابحث عنه بعيني في الظلام ..

وقلت في اعياء : « ادفن ولدي .. »

وبرز الي من بين الاشجار .. ورمقته بصمت ... وقال لي : «عنك احمله بدلك ايها الشيخ . »

وتشبثت بولدي .. وقلت : « لا .. سأحمله انا .. »

وسار الى جانبي صامتا .

وواصلت قائلا : « لقد قتله الانجليز يا ولدي ... كان ولدا شجاعا .. صبورا ... »

ـ « أليس لك اولاد غيره ؟ .. »

ـ « لي ولد اكبر منه .. ولكنه لا فائدة وراءه .. انه سكير .. زير نساء .. جبان .. يخاف من البحر خوفه من الاشباح .. اما ولدي هذا فكان شجاعا يحب المركب والبحر مثل نفسه تماما .. كان عطوفا بي .. البيت سيغلق من بعده .. والمركب سيبيعه الولد الكبير اذا ما مت انا ليشرب بثمنه خمرا .. قتله القصير ولن انساه .. ولا بد ان اقتله .. »

ـ « عنك قليلا ايها الشيخ .. »

ـ « لا .. لا .. سأحمله انا وحدي .. اني اجيد الرماية كأحسن الرماة في الجيش .. واستطيع ان اصيب عين الدرفيل من بعد مائة متر ... »

ـ « انت صياد ؟.. »

ـ « نعم .. اعمل في البحر منذ اربعين عاما .. وبندقيتي اخبئها هنا .. سأحملها واذهب لابحث عنه .. ذلك القصير ورفيقيه .. بالرغم من اعوامي الاربعة والخمسين فانا استطيع ان اقاتل كأفضل الجنود .. سأقاتل وقلبي من حديد .. لن يهتز .. »

ـ « الن تعود الى زوجتك ؟.. »

ـ « لم تعد لي زوجة .. ماتت منذ ثمانية اعوام ... لا يهمني ذلك .. »

ـ « هنا يا أبي .. ادفنه هنا .. المقابر امتلأت .. »

ـ « هل انت حارس المقابر هنا ؟... »

ـ « لا .. ولكني اعرف عن هنا الكثير .. لاتبك يا ابني .. »

ـ « انا لا ابكي .. ذلك القصير ورفيقاه .. اني اعرفهم تماما .. اشعل عود ثقاب .. »

وساعدني ذلك الرجل في دفن ولدي .. ولم اكن اصدق نفسي بأنني دفنته ولن يعود الي مرة اخرى ..

ووقفت لحظة .. وجذبني الرجل من يدي برفق .. وهمس : « هذه ارادة الله .. »

ـ « ولكني لا اعرف المقبرة من الظلام .. »

ـ « ولكنه في مقبرة ..... »

وكان يجذبني جذبا خلال الدروب الضيقة .. وانتزعت نفسي منه: « لا بد ان اعرف المقبرة .. »

ـ « ولكننا يا ابني سرنا مسافة وتاه القبر .. انه في مقبرة على كل حال .. لا اظنك رقيقا مثل النساء .. »

ـ « لست كالنساء .. »

ـ « اذن انطلق على بركة الله . وولدك صار في عناية الرحمن .. »

ـ « هلا أتيت معي لآتي بالبندقية ؟.. »

ـ « اي بندقية ؟.. »

ـ « بندقيتي ..... »

ـ « اين خبأتها ؟. »

ـ « في غرفة المقابر الثالثة على اليمين من الباب البحري »

ـ « ما نوعها ؟.. »

ـ « خرطوش .. »

ـ « لا تنفع أبدا .. »

ـ « ولكنها تقتل .. ولا بد ان اقتل ذلك القصيرورفيقية .. »

وشعرت بالغضب .. شعرت بذلك الرجل يؤخرني عن الانتقام .. أود ان انطلق الى المدينة في لمح البصر وابحث عن السفاحين الثلاثة ..

وسألته : « ما ماركة البندقية التي تعلقها الى كتفك ؟.. »

ـ « مدفع رشاش .. »

ـ « هلا أعطيتنيه ؟ »

ـ « يمكن ان نعطيك مثله .. »

ـ من ؟.. أنت ؟

ـ لا .. نحن

ـ انتم

ـ نعم

ـ لا افهم .. هل قلت انك حارس المقابر ؟

ـ لست حارس المقابر .. ويمكننا ان نعطيك مدفعا على شرط ..

ـ ما هو هذا الشرط ؟

وفكر لحظة ثم قال : ان تقسم يمين الولاء

قلت بضجر : انت تعطلني ايها الاخ

ـ هذا افضل لك

ـ الا بد من القسم ؟

ـ لا بـد

ـ هل سيأخذ وقتا طويلا ؟

واهنف الرجل برفق .. وقال : ان القسم بالولاء سيتيح لـك الانتقام بحق .. ولكن اذا ذهبت وحدك هكذا فلربما قتلوك انت الاخر دون ان تحصل على هدفك ..

وفكرت لحظة ثم قلت : وما نوع هذا القسم ؟

ـ ستقسم بالولاء للجمهورية

ـ الجمهورية ؟

ـ نعم

وقلت لنفسي : «سأقسم ما دام ذلك لن يعرقلني .. ولن يعطلني لحظة .. »

وسألت : ولكن لماذا بالجمهورية ؟

ـ هكذا امرونا بان نقسم

ـ من هؤلاء ؟

ـ الضباط

ـ حسنا .. سأفعل .. ما دام ذلك يتيح لي الانتقام .. وسأري الضباط انني استطيع ان اصيب عين الدرفيل من على بعد مائة متر .. وهل لهؤلاء الضباط اولاد قتلهم الانجليز ..؟ »

ـ لا .. انهم يعملون من أجل انقاذ الجمهورية .

ـ انقاذ الجمهورية ؟

ـ نعـم

ـ اي انهم لم يفقدوا اولادا في هذه الحرب الملعونة .. ولكنـي فقدت ولدا شجاعا .. حبيبا الى قلبي ..

ـ وولدك الكبير .. ألن ينتقم من اجل اخيه ؟

واثار حنقي .. وقلت له : انه سكير .. زير نساء .. جبـان .. ولن ينتقم من أجل أخيه .. لانه تافه واخوه كان أفضل منه الف مرة.. حينما يعلم ان اخاه قد قتل فسينتظر موتي بفارغ الصبر ليبيع المركب ويجرع بثمنه خمرا .. ولكني لن ادعه يبيعه مطلقا .. ولو مت فلـن ادعه يبيع المركب .. سأقسم لهم بولدي ان انتقم من السفاحين .. »

واهنف الرجل برفق وقال : « ستقسم بالجمهورية »

ـ « بولدي او الجمهورية .. بأي واحد منهما »

وفكرت : « لا بد ان الجمهورية شيء عزيز لديهم مثل المركب من نفسي تماما .. »

وامام ضابط عجوز يقظ اقسمت بالولاء للجمهورية وقال لي كلمتين عن اننا يجب ان نعمل لانقاذ الجمهورية جميعا .. فالانجليز لم يأتوا الا للقضاء على فكرة الجمهورية الناشئة في بلادنا واعادة الملكية .

وسألني : هل تستطيع اطلاق النار ؟

ـ نعم

ـ نم قليلا حتى يحين دورك .

ـ لا استطيع النوم ... يجب ان اذهب سريعا وابحث عن القصير ورفيقيه .

قال بصرامة : « لن تذهب وحدك .. ستذهب معهم .. اننا نضع خططا محكمة .. لقد اقسمت بالولاء من اجل الجمهورية ودمك لا يمسح عار مجرد التفكير في الحنث بهذا القسم .. »

*

وكان هواء المقبرة باردا ثقيلا .. والضوء كابيا .. وثلاثة رجـال نائمين .. واسلحة كثيرة موضوعة بنظام الى جانب الضابط العجوز .. وذهب الرجل الذي كان يصحبني ليحرس المنطقة .. وتمددت الـى جانب الرجال الثلاثة .. ولا بد ان الولد الكبير قد عاد الان الى الكـوخ فلم يجد فيه أحدا ورأى اثار دم فادرك ان اخاه قد قتل ، فذهب ليأتي بمن يشتري المركب في غيبتي .. والتهب دمي .. لن ادعه يبيع المركب.. هذا الجبان الذي يخاف البحر ..

ووقفت في مكاني فسألني الضابط : الى اين ؟

ـ سأذهب الى الكوخ واحمل المركب لاخبئه هنا

ـ انت تود الهرب

ـ انا الذي اتيت بمطلق ارادتي ولم يجبرني احد

ـ لقد اقسمت بالولاء من اجل الجمهورية

ـ « نعم .. ولن احنث بقسمي .. ولكني لا بد ان اخبيء المركب هنا فولدي الكبير سيبيعه بمجرد ان يتبين ذهابي .. »

ـ سأرسل معك رجلين

وذهب معي رجلان من الثلاثة .. وكانا صامتين .

ووجدت ولدي هناك كما توقعت .. وجدته جالسا وفـي عينيه عربدة الخمر .. واحسست نحوه بالمقت .. وقلت له بحدة : « توقعت عودتك .. ولا بد انك فكرت في بيع المركب .. ولكني لن ادعك تبيعه حتى ولو قتلت ... »

ـ ولكني لم افكر في بيعه

ـ انت كذاب وجبان .. لقد فكرت في بيعه .

ـ ولماذا ابيعه ؟

ـ وبالرغم من انهم قتلوا اخاك ولن يصير اليه المركب فلن ادعـك تبيعه .

وحملت المركب انا والرجلان .. وانحدرنا في الظلام نتجنب اعـين الجنود الانجليز ... وانحدرنا بعيدا .

وسمعت صوت الولد يتبعنا .. وقلت له بمرارة : اذهب الـى عاهراتك .. اذهب ايتها الجيفة ... سآخذ المركب الى حيث رقـد اخوك .. لن ادعك تعرف اين سأخبئه .. عـد والا اطلقت عليـك الرصاص وصرعتك مثل الكلب .. »

في الاسواق

تأملات وجودية

بقلم الدكتور

زكريا ابراهيم

■ لون جديد لم يعرفه الادب العربي من قبل

■ خواطر ويوميات تشتعل بالفكر والحياة وتتناول مشاكل الوجود والموت والعدم والظلام ، وتـذكرنا بيوميات كيركجورد وغابرييل مارسيل .

■ مذكرات حية تلوح كلمع من النجوم وسط حلكة الجفاف الاكاديمي .

■ كتاب هام يعيش قضية « الفكر » وسوف يكون بدء سير في طريق جديد من طرق التعبير بالعربية

الثمن ٢٥٠ ق.ل

منشورات دار الاداب

والقى الولد بنفسه عند قدمي واخذ يبكي بشدة .. وقال : « لم اكن اعرف انهم قتلوا اخي .. ولا افكر في بيع المركب بالرغم من انهم قتلوه ... »

ـ انا لا اصدقك ... اذهب عني .

وانطلقنا .. وعاد الى اللحاق بنا .

وقلت له : انت لا تفكر في الانتقام من اجل اخيك .

ـ لا بد ان انتقم من اجله يا ابي .

ـ انك سكير ولا تكون في وعيك لحظة واحدة .. وبمجرد ان تعود الى وعيك لن تفكر في الانتقام من اجل اخيك وستفكر في بيع المركب .. اني اعرفك تماما .. »

ـ اقسم لك يا ابي .. اني الطخ جبيني بالتراب بين قدميك .. أقسم لك بانني سأنتقم من اجل اخي بالرغم من كوني سكيرا ولكني اعرف معنى كل كلمة اقولها ..

واحسست بشيء من العزاء .. وقلت : ولو لم استطع ان اضع فيك ثقتي فانني احس بانك حزين لصرع اخيك .. لا بد ان تكون حزينا فهو اخوك ..

ـ هو ذاك يا ابي .. ومنذ الان ساعمل على الانتقام من اجله

ـ حسنا يا ولدي

ـ اقسم برأسك يا أبي اني ساعمل على الانتقام

ـ ستقسم بالجمهورية لا برأسي

قال بدهشة : بالجمهورية ؟.. أي جمهورية ؟

ـ هكذا ستقسم .

ـ من اجل اخي ؟

ـ اني ارى ذلك .

وبرز الينا الحارس نفسه وقال : هل انتم ؟

قلت : نعم .. لقد اتينا بالمركب لنخبئه .. وهذا هو الولد الكبير.

ـ السكير ؟

ـ ها هو ... خذه الى الضابط ليقسم بالجمهورية .

وعندما ذهب ولدي مع الحارس شعرت بالراحة اذ لن يعرف مكان المركب ، وان كنت ادرك تماما انه سيبحث عنه في كل مكان .. وعندما عدنا وجدنا الضابط معكر المزاج .. وولدي واقف بعيدا مغضب .

وقال الضابط : هذا خطأ .. لن نستطيع ان نثق بالسكيرين ايضا واقسمت للضابط ان ولدي يعمل من اجل الانتقام لاخيه .

قال الضابط : ولكنه لن يعمل من اجل الجمهورية

ـ ويستطيع ان يعمل من اجل الجمهورية .

ـ سنرى

قالها الضابط بلهجة صارمة .. ثم سال : اهو ولدك ؟

ـ نعم

وتمددت الى جانب الرجال واستغرقت في النوم ... وتركت ولدي واقفا كالقط الغاضب وهو يقسم بانه سيعمل من اجل الجمهورية ... وسينقذها بدمه .

وعندما فتحت عيني لم اجده .. وانزعجت .. هل ذهب ليبحث عن مكان المركب ؟

قال الضابط : لقد ذهب مع رجلين لنسف مركز من مراكز الانجليز.

ـ هل في هذا المركز الرجل القصير وزميلاه ؟

تجهم الضابط وقال : لا افهم سؤالك

ـ ان ولدي لا يعرف شكل الجنود الثلاثة الذين قتلوا ولدي الصغير

قال الضابط بصرامته : لقد وهبنا انفسنا من اجل الجمهورية فلا يجب ان نفكر خارج هذا الامر .

وبقيت مستيقظا حتى عاد من الخارج رجل واحد منهم ..

وساله الضابط : هل نسفتم المركز ؟

ـ نعم .. وصرع الزميلان

ـ نعم

ودق قلبي بعنف .. وسالت مرة اخرى : هل انت متاكد من انه صرع ؟

ـ متاكد

وفكرت : « لم يعد هناك من سيفكر في بيع المركب .. »

قال الضابط بنفس الصرامة : انه فخر ان يموت ولدك من اجل الجمهورية ، فخر يود ان يناله كل أب .

قلت بصوت منخفض : لم اكن احسب ان هذا الولد بالذات سيكون مصدر أي فخر لي .... والمركب والجمهورية صارا شيئا واحدا لدي .. الاثنان سيان عندي الان ... »

ضياء الشرقاوي

الاشتراكية والأدب

ومقالات أخرى

تاليف

الدكتور لويس عوض

دراسات معمقة عن النزعة الاشتراكية
كما تبدو في آثار اكبر الكتاب العالميين

صدر حديثا عن دار الآداب

الثمن ٣٥٠ ق.ل